كنور ... بالثمن !

قصة بقلم سمير تنير

« الله يسامح الذين نصحوك يا حاج عبد الحفيظ بالذهاب الى المستوصف الحكومي . لقد انهد حيلك ، وانقطع نفسك قبل ان تصل اليه . وظلت ثلاث ساعات تنتظر الدكتور ولو طاوعت نفسك ، وفعلت ما اوحى اليه تدبيرك لكنت الان في الشارع تبيع بضاعتك » .

همس الحاج بهذه الكلمات .. وبصق .

كانت تلك هي المرة الاولى التي يلجأ فيها الحاج عبد الحفيظ النعناع الى المستشفيات الحكومية فقد اغناه الله عنها فهو لم يشك في حياته الما والحمدلله . الا ان سحابة زرقاء بدت في عينيه منذ شهرين . فلم يعرها اول الامر اهتمامه . وقد نصحه جاره « ابو محمد » بالذهاب الى « حكيم عربي » فكان كل ما وصفه له هذا الحكيم العربي دواء مركبا من زيوت كثيرة تخلط معا على نار قنديل الكاز ثم تمسح بها العينان . وانتظر الحاج شهرا فتزايدت السحابة الزرقاء في عينيه حتى لم يعد يستطيع الرؤية الا على بعد خطوات قليلة . وكان ان هداه الله الى « خواجة » لطيف نصحه بالذهاب الى المستشفى الحكومي. فاحتار في امره . ايذهب ويدع عمله ؟ ومن سيشتغل مكانه ؟ من يحمل صندوق العلكة والبسكويت والملبن ويطوف الشوارع مكانه ، ازوجته المريضة المنطرحة على الارض منذ سنين. ام ابنه المتشرد الافاق الذي يظل بين الشهر والاخر لكي ينتزع منه كل ما جمعه بعرق جبينه ، ليلعب به القمار ؟

بهذا فكر الحاج طويلا . لقد انهد حيله وهو يدور في الشوارع منذ سنين ، يبيع الصفار الملبن والعلكة والشوكولاته . كان يسير في الحر والمطر غير مبال بشيء الا بالليرتين اللتين يحصل عليهما اخر النهار ، فيشتري بهما خبزا وزيتونا ، وقد يمن الله عليه بخواجة فيعطيه ليرة او اكثر يشتري بها دواء لزوجته . الا ان تلك السحابة الزرقاء اللعينة في عينيه جعلته لا يستطيع الركض والجري وراء الترام خوف الدهس فقل ربحه الى الليرة ، ولا يزال يتناقص يوما بعد يوم .

وذات مرة خطرت له فكرة اخترقت دماغه وجعلته يقف كمن اطلق عليه الرصاص .

ـ « الماء الزرقاء » في العين تزداد حتى تجر آخر الامر الى العمى. من سيطعم المسكينة « ام فارس » ومن سيحصل لنا على اللقمة التي نتبلغ بها ؟

كانت هذه الفكرة هي التي جعلته يسرع الى المستشفى الحكومي وها هو الان جالس على مقعد متآكل في المستوصف انتظارا للدكتور .

كانت الغرفة ضيقة وغبار الطحين الذي يتصاعد من المطحنة المجاورة يملأ الجو ويقطع الانفاس. والبول الذي يجري في قنوات صغيرة رفيعة تحت الاقدام يعبق برائحة غريبة نفاذة . والمرضى حوله بعضهم افترش الارض ، وبعضهم جلس على المقاعد الخشبية ، وبعضهم تراص على الابواب ، او استند الى الجدران في انتظار اللمسات السحرية ، وقد وضع كل منهم يده على رأسه اودسها في جيبه ، وبات ينظر الى الباب بين الحين والحين في قلق وترقب . وامام الغرفة وقف ممرض ضخم يتطلع الى المرضى يزنهم بعينيه ، ليرى ايهم على استعداد لدفع ثمن ساعة من ساعات الانتظار . كم يكره تلك الوقفة المتحدية المستكبرة ، تلك النظرة ، كم يود لو يقضي عليها .

وشكر الحاج الله طويلا على « النعمة » التي اسبغها عليه فهو يسكن كوخا جدرانه انظف من جدران المستوصف ، « ملك الحكومة » والناس حول هذه الجدران يتحركون كاشباح كثيرة الالوان والاشكال : احمر وازرق واسود وابيض ، ملاية وفستان وتايير سروال وبنطلون وقنباز .. واثبت هذه الالوان عيني الشيخ فرفع يده الى رأسه بينما اندفعت الى مخيلته صورته يوم العيد وحوله الاطفال بالبستهم الملونة .

تناهى الى سمعه بكاء طفل . فرفع رأسه يتطلع الى الجالسين حوله يبحث عن الطفل الباكي. كم يكره ان يرى انسانا يتألم امامه . حتى ابنه العاق يتمنى له الصلاح والرحمة من رب العالمين. هو هكذا لا يقابل الشر بمثله .

مر من امامه الطفل الباكي ، كان حلوا مورد الخدين ازرق العينين .كان الحاج يراه صورة مهزوزة كانه ينظر اليه من خلف دموعه . ـ « يالله من احلى الاطفال ... » انه يحبهم ، يحب ان يضمهم اليه . هكذا احب يوما ان يموت وهو يحتضن ابنه . لا يدري الحاج لم يشعر ان قلبه يتمزق بسكين ذي شفرات حادة عندما يرى طفلا يتألم . انه يكره الالم . يستطيع ان يتحمل المرض والمصائب . ذلك اهون عليه من ان يرى طفلا يبكي .

وتحسس الحاج جيبه بسرعة . كان معه قطعة حلوى صغيرة دفعها الى الطفل الذي ضحكت عيناه بفرح لذيذ . ونسي الحاج مرضه ومصيبته فالهم قد غسله فرح الطفل البريء.

ـ « ايه ... دنيا ، ايام تروح وايام تجيء » . اين تلك الايام الخوالي حين كان الحاج صبيا يمرح في قريته لقد ضاعت فهم الارض. باعها ابوه . هكذا قيل له . ثم باعوا البيت . فالعام كان عام حرب وجوع. كان عليه ان يكافح . مارس جميع المهن : عربجي باجرة ، عتال عالبور، بائع ترمس ، بائع عرقسوس ، بائع نوفوتيه ، بائع ياسمين. وفيالحقيقة ان امتع تلك المهن مهنة العربجي. انها المهنة التي تتيح لصاحبها نوعا من الابهة ، عكس مهنة صبغ الاحذية التي كانت تفرض عليه ان ينكفيء على احذية قذرة طوال يوم كامل . يتعرف فيها على جميع انواع الاحذية ، وعلى جميع انواع البشر . كان لا ينظر الى الزبون ولا يرفع راسه نحوه كل همه اليد التي تمتد ببرود بالربع ليرة . ويعترف الحاج بينه وبين نفسه ان اسعد ايام حياته كانت عندما قدم اليه ولده « فارس » يد

المساعدة . كانا يشغلان مهنتين في يوم واحد . قبل الظهر واحد يصبغ الاحذية وواحد ببيع الترمس . كان هذا التنظيم يخفف عنه بعض الشيء. لكن الحال لم يدم طويلا . فقد تعرض فارس على اصحاب افسدوه فعق اباه ، ونسي امه ، واصبح زبونا محترما للشرطة .

ان الحاج يعترف ، بينه وبين نفسه ، انه ظل ياكل لقمه ، بشرف وامانة . تلك نعمة من الله يرفع يديه عليها شكرا . « ام فارس .. ام فارس لها الله ». ام فارس المسكينة ظلت تغسل الملابس ، وتنظفها وتكويها حتى سقطت كسيحة الى الارض . اما وعده « ابو خليل » زعيم الحي مرة ان يسعى له في تدبير امر زوجته ونقلها الى المستشفى للعلاج؟ أما كان وعده ذاك ، قبيل الانتخابات بمدة وجيزة ؟ اما تلاشت وعوده ، بعد ذاك ، وتبخرت ؟ لم لا يفون بوعدهم ، لم يكذبون عليه ؟

حدثت جلبه واشرأبت الاعناق نحو الباب الخارجي ، بينما دخل الدكتور ، يجري في نشاط ثم اختفى في غرفة الكشف .

وتدافع الناس نحو باب الغرفه . فرفع الممرض الضخم يديه الاثنتين يسد بهما الباب وهو يصرخ :

ــ الحريم .. اولا

فتراجع الرجال الى الخلف وهم يهدرون في احتجاجات خافتة بينما تدافعت النسوة نحو الباب في سباق اهتزت له جدران العياده كلها.

كان الحاج لا يزال جالسا في مقعده فهو لا يستطيع الاشتراك في « المعركه » « واخيرا جاء دورك يا حاج » ..

تقدم الحاج نحو الدكتور فلا يرى الا اشباحا لرجل يلبس قميصا ابيض ، وعلى جبينه طوق اسود ولمبة صغيرة ، والى جانبه ممرض يجلس وراء طاولة خشبية صغيرة . وامامه اوراق كثيرة ، دفتر ضخم كدفاتر البقالين.

ويجلس الحاج على المقعد امام الدكتور ، فيسأله الطبيب ، ثم يميل عليه يتفحص عينيه ، وما هي الا توان ــ « ماء زرقاء » في العيون .

ويقوم الدكتور من مكانه ويقرب يده نحو الحاج .

ــ كم عدد الاصابع ؟

فيجيب الحاج : « اثنان »

فيبعد الدكتور قليلا : « كم ؟ »

ــ خمسة .

فيبعد الدكتور مسافة اخرى : « كم ؟ »

ــ لا ارى شيئا الان .

ــ « ماء زرقاء » يلزم عملية . تكلف ثلاثمائة ليرة

ويتطلع الحاج الى الدكتور بذهول وهو يتمتم :

ــ ثلاثمائة ليرة ؟

ــ نعم .. العملية نجري لك بعد غد . حالتك خطيرة . انت مهدد بالعمى .

ــ اليس هناك حل آخر ؟

ــ هناك ادوية مخففة . لكنها لا ترجع العين الى حالتها الاصلية يلزم عملية .

ونهض الحاج قائلا : « تسمح تكتب لي على الادوية »

من اين له بالثلاثمائة ليرة ، وهولو اشتغل ثلاثمائة سنة فلن يحصل على نصفها . انه معدم . لا يملك شيئا . حتى لقب « الحاج » تفضل الناس فخلعوه عليه .

ــ خذ ..

ويأخذ الحاج الروشته بيد مرتجفة .

غدا سيصبح اعمى . غدا سينطفيء الضوء في عينيه الكليلتين . غدا تسود الصور ويعيش في ليل دائم طويل . لا بأس عليه . سيظل يكافح من اجل « ام فارس » .سيستعين بالعصا . لا .. بل ان الخواجات سيبذلون له عطاء اكثر اذا رأوا عينيه المنطفئتين .

وغادر الحاج المستوصف بخطى سريعة والصور تزدحم في مخيلته . صورته ... وهو يقف امام دور السينما والجماهير تكاد تجرفه وهو يصيح « علكة يا شباب .. بفرنك .. علكة يا شباب »

فتمر آنسة على قدمه فتنسمه ، لان فستانها علق به وتدنسته قذارته. ثم .. برجال الشرطة يهجمون عليه كالاسود الكاسرة فيخطفون علبته ويقحمونه في سيارة طويلة ثم « يسحنونه » مع بضاعته الى دار البلدية.

صورته وهو راجع الى كوخه الحقير في الضاحية يسأل الاولاد ان يرشدوه الى الطريق .. فيسير .. يسير تائها ، وعصاه تصفع اسفلت الشارع في نقرات هادئة .. خائفة .. وهو يدب كالنمله فوق ارض الشارع ومن فوقه السنونو تروح وتجيء .. وتعلو والاغصان .. اغصان السرو الكبيرة تناطح السماء الزرقاء.

لن يرى بعد اليوم ، قطته السوداء تمسح به مقوسة ظهرها . لن يرى « ام فارس » في رقدتها الهادئة على الارض ونظرتها الوديعة .

لن يرى احباءه الاطفال . كم سيشتاق لهم .

لن يرى واجهات المحلات ودور اللهو المضاءة بالنيون والبحر ولا الكورنيش وهو الذي تعود ان يذهب كل احد الى هناك فيعود بغلة الاسبوع .

كان الشارع يمتد امامه طويلا مفروشا بالشمس الساطعة وبالغبار وبالد ان الاسود .. وشد قامته ومشى يحدق بالناس والواجهات واللافتات الملونة وبالاطفال يركضون كالعصافير . ثم اغمض عينيه قليلا فانسابت الاشياء امامه بهدوء ، حمراء شفقية ، وود من كل قلبه ان يتجمد كل شيء في مكانه ليتمتع بالراحة ولو لحظات .. ثم رفع يده الى خده بحركة مذعورة يمسح بها دمعة اوشكت ان تنحدر .

سمير تنير

« مجموعات » الآداب

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات الست الاولى من الآداب تباع كما يلي

		مجلدة
مجموعة السنة الاولى	٩٥ ل.ل	١٠٠ ل.ل
» » الثانية	٢٥ »	٣٠ »
» » الثالثة	٢٥ »	٣٠ »
» » الرابعة	٢٥ »	٣٠ »
» » الخامسة	٢٥ »	٣٠ »
» » السادسة	٢٥ »	٣٠ »